انطباعات من أوربا ومن هيئة الأمم المتحدة [1]

كنت معتزماً منذ الصيف الذى أمضيته فى بلاد الشام ، فى فلسطين وسوريا ولبنان — أن تكون رحلتى فى الشتاء إلى السودان . لكن تحديد اللجنة التحضيرية لهيئة الأمم المتحدة فى الأسبوع الأول من شهر ديسمبر اليوم العاشر من شهر يناير بعده موعداً لانعقاد الجمعية العامة الأولى لتلك الهيئة من ناحية ، وتوقانى إلى « الانغماس » فى البيئات الدولية التى استمرأت اجتماعاتها فى مؤتمرات الصلح والاقتصاد ونزع السلاح ودورات عصبة الأمم خلال ربع القرن المنقضى والتى حرمت منها أطول من ست سنين من ناحية ثانية ، دفعا بى فجأة من اتجاه الجنوب على دفئه إلى اتجاه الشمال على برده ، وقضيت الثلاثة الأسابيع الأخيرة من يناير وشهر فبراير والأسبوع الأول من شهر مارس فى لندن وبروكسل وباريس أزور هذه للمرة الأولى بعد الحرب ، وبعد غيبة اثنتى عشرة سنة عن الأولى ، وست سنوات ونصف السنة عن الثانية والثالثة وقد تتبعت طوال إقامتى فى لندن اجتماعات هيئة الأمم المتحدة ولاحقت أعمال مختلف مجالسها ولجانها ، وحضرت فى بروكسل يوم الانتخابات البلجيكية العامة وما سبقه من الخمسة الأيام الأخيرة من فترة الحملة الانتخابية ، وزرت باريس أو أديت فيها مناسك حجى إلى كعباتها الجامعية والدستورية والفنية ومايتخللها من تيارات اجتماعية منبعثة من حركات المقاومة والتحرر وإعادة التنظيم . ثم عدت بعد ذلك كله بانطباعات عن ثلاث من دول أوربا الغربية يعملن فى

---

(١) أعجبت مدة إقامتى فى العراق ببعض تعبيرات يجرى بها الاستعمال هناك وتدل على معانيها دلالة أقوى من دلالة معانى مقابلاتها فى الاستعمال المصرى أو الشامى ، وبينها التعبير بـ « الانطباع » للدلالة على الأثر الذى يتركه المشهد أو الحديث فى النفس ، فآثرت استعماله اليوم ترجمة لكلمة Impression الفرنسية أو الانجليزية .

سبيل التغلب على ما أصابهن من ويلات الحرب ، وعن هيئة الأمم المتحدة التى تحاول إقامة العلاقات الدولية على أسس جديدة .

أما العواصم الثلاث فقد تجلى لى خلال ما شهدت فيها وماخبرت أن الإنجليز والبلجيكيين والفرنسيين قد أنهكت الحرب أجسامهم ونفوسهم إنهاكا فى عموم وإن كانت نسبة هذا الإنهاك وأثره فى القدرة على رد الفعل يختلفان عند كل فريق باختلاف ملابساته . وقد كانت هذه الحرب هى الأولى التى تفاجئ الإنجليز فى جزيرتهم بعد قرون كانت الحروب التى ساهموا فيها طوالها تقع خارج ديارهم . وكانت هى الأولى التى تستعمل فيها القذائف الموجهة التى تصيب الناس من حيث لا يعلمون . وكانت هى الأولى التى تكشفت فيها للفرنسيين أنواع وأنواع من كوامن الفوضى والتواكل والانزلاق إلى مهاوى الخيانة التى كان سوسها ينخر فى عظامهم قبل الحرب ذاتها بشهور وسنين . وكانت هى الأولى التى ذاق فيها البلجيكيون مرارة القسوة « النازية » المنظمة وإن لم تكن هى الأولى التى عرفوا فيها نكبات الاحتلال الأجنبى . ولذلك فقد كانت أعصاب الإنجليزى هى التى تأثرت ، وكانت نفسية الفرنسى هى التى مُسَّت ، وكان البلجيكى هو الذى عملت « مناعته » ، التى اكتسبها من تعاقب الاحتلالات ، على أن يكون أسبق من زميليه إلى العمل والاستعادة .

لاح لى الإنجليز خلال الأسبوع الأول من إقامتى فى لندن أن قد أصابهم جميعاً « مس » . أولئك المتحجرون يكثرون تحريك أيديهم والتلويح بأذرعتهم ، وأولئك المتئدون يتجهون يميناً ويصحصحون بعد لحظة اتجاههم يساراً ، يخرجون من الفندق ثم يدخلون إليه مع لفات الباب الدائر . وهم مع هذا وذاك وعلى مقدرتهم على الاحتمال بدءوا يتيهون فى دياجير القلق على مستقبلهم ، وبدءوا يتاخمون اليأس من استرداد رخائهم ، بل بدءوا يلمسون ما يتهددهم من حرمان على ما يطلب إليهم توفيره فى الانتاج لكن ليكون محل تصدير يستهلكه الأجنبى فى الخارج على مسيس حاجة الإنجليزى إليه فى الداخل . وهم من أجل ذلك قد أخذوا يتساءلون : « هل من ضرورة للعمل ؟ وهل من مصلحة فى بذل الجهود ؟ » . وبينما هم يعتمدون فى استئناف نشاطهم على « القرض الأمريكى » ، إذا ببعضهم يدعو الله ألا تقر الولايات المتحدة طلب القرض ؛ لأنهم يعتقدون أنهم به وبعده سيصبحون عبيداً للأمريكيين على حين هم يؤمنون بنوع من المعجزات

قد يدركهم وينشلهم من وهدتهم . وفى انتظار المعجزات تبذل الحكومة الإنجليزية جهوداً جبارة فى سبيل التفاهم السياسى ، أو فى سبيل النفوذ السياسى عن طريق التفاهم حيث لا يجدى طريق العنف ، مع البلاد التى تحسبها لازمة لها لزوما اقتصاديًا . وإذا كان شىء من التميز بين سياسة العمال الذين يتولون الآن الحكم فى انجلترا وسياسة المحافظين التى كانوا يتولونها قبلهم لايستبين فى وزارة الخارجية البريتانية ، فان تباين السياسة الاقتصادية والاجتماعية بين الناحيتين منجل فى وضوح . والعمال ملحون فى « تأميم » أكثر ما يستطيعون من وسائل التداول والإنتاج . وقد فرغوا من تأميم بنك انجلند ، وهم يجدّون الآن فى سبيل تأميم مناجم الفحم ووسائل النقل الحديدية والبرية والبحرية والجوية . والواقع أن ميلاً إلى اليسار يتضح فى البيئة الإنجليزية على العموم ، وإن كان هذا الميل لم ينجح بعد فى تقريب مسافة الخلف بين الشيوعيين والاشتراكيين . وقد حدث أن تقدم الحزب الشيوعى لحزب العمال بطلب اندماج الهيئتين فى منظمة واحدة عن طريق انضمام الشيوعيين إلى حزب العمال ، فرفض العمال الطلب — وكان رفضهم هذا للمرة الثامنة فى تاريخ محاولات التوفيق بين الجانبين — معلنين أن خير ما يتبقى للشيوعيين « إنما هو ان يحلّوا حزبهم وأن يتقدموا أفرادا بطلبات انضمام ينظر مجلس إدارة حزب العمال كل واحد منها على حدة» . لكن الشيوعيين لم ييأسوا وهم يعتبرون هذا الرفض صادراً عن اللجنة الإدارية لحزب العمال وحدها ، وسيعرضون الأمر على مؤتمر النقابات — وهو مؤتمر حزب العمال العام — حين ينعقد قريباً .

وأما فى باريس فالذى شاهدته لأول وهلة إنما هو الصخب وإنما هو الضجر . فلم أسمع غير شكوى ، ولم أنصت إلا إلى تفكير فى مغادرة البلاد إلى « أميريكا الجنوبية » . على أنك إذا حللت الشكوى وجدتها شكوى نظرية يشترك الشاكى فى المسئولية عن الشكوى التى يضج بها . فالضجيج يعلو من « السوق السوداء » ، لكن هذا الضجيج يصحبه فى الوقت عينه عرض لأصناف تجلب من السوق السوداء . وإنه ليخيل لك — وقد خيل لى بالفعل — أن فرنسا كلها « سوق سوداء » يشترك فيها الفرنسيون جميعاً ويشكون من قيامها جميعاً . . . وإذا كانت السوق السوداء لا يخلو منها بلد من بلاد أوربا فى هذه الأوقات فانها فى فرنسا تقوم تحت حماية السلطات العامة ، وأكاد أقول وباشتراك هذه

السلطات أيضاً ، فى حين أنها فى انجلترا تعرّض المقترب منها لأقسى أنواع العقاب. وحادثان اثنان وقعا قبيل سفرى من باريس بيومين اثنين ، يكفيان للدلالة على ما انحدرت إليه الأحوال هناك . فقد قبض على عديد من الرؤساء فى محافظة باريس متهمين بالاتجار برُخَص القيادة والنقل وما إليها من إطارات للسيارات الصغيرة والكبيرة ، وحدث فى اليوم عينه أن دقّت النواقيس فى عاصمة « بريتانى » إعلاناً لسر كان متفقاً عليه هو أن موعد القطار الذى يحمل مندوبى مصلحة الضرائب والمراقبة الاقتصادية المكلفين بالتفتيش على حسابات التجار من أجل تحديد أرباحهم الاستثنائية قد حل . وإذن فقد هرع التجار ومن إليهم من أهل المدينة إلى محطتها وحاولوا بالقوة دون نزول أولئك المندوبين من القطار وأكرهوهم على العودة من حيث أتوا ، دون أن يمكّنوهم من تأدية واجبهم ؛ لأنهم لا يريدون أن يدفعوا ما يفرضه القانون على أرباحهم الاستثنائية من ضريبة .

وإذا كانت مظاهر الفوضى هى البادية خلال مثل تلك المواقف بين الفرنسيين فإن فى العاصمة الفرنسية مكانا يشع منه نور يرى فيه الناس دلالة من دلالات الأمل فى قرب انتظام الأمور ، وهو مقر مجلس النواب الذى تجتمع فيه الجمعية التأسيسية التى تمضى مسرعة فى وضع الدستور الجديد الذى سينبعث منه استفتاء جديد تتلوه انتخابات جديدة تقوم على أثرها هيئة نيابية جديدة . وقد عملت الجمعية التأسيسية حتى الآن بروح التغلب على كل صعوبة تقوم فى وجه التوفيق بين مختلف وجهات النظر ، وإن كان البادى هناك أن تيار الاتجاه إلى اليسار يكاد يكون جارفا .

على أن الباريسى وسط كل تلك الكوارث التى داهمته لم ينس خاصيته ، ورغم حرمانه المادى لم ينس غذاءه الفنى ؛ فالمسارح غاصة والمقاعد فيها مبيعة إلى أسبوعين ، ولو أن دور اللهو التى كانت متفشية فى باريس قد هجرت ، والحكومة تضيق الآن عليها الخناق فتفرض عليها الضرائب باهظة وتحدد ساعات قليلة لنشاطها . لكن المعارض الأدبية والفنية متتابعة ، ودور الموسيقى محل إقبال لا مثيل له ، وكذلك المحاضرات والمكاتب . . . ثم إن « السوربون » لا تزال هى « السوربون » !

أما بروكسل فتختلف الحياة فيها اختلافا بيناً عن لندن وباريس . فأهلها

تنطق معنوياتهم بحب العمل وبالإقدام فى سبيل الإنتاج لأجل هناءتهم وهناءة بلادهم . وقد كان لبلجيكا حظ اتصالها بالأميريكيين عند التحرر ، فقامت لهم بأعمال حربية وأدت لهم خدمات اقتصادية ، أصبحت من جرائها دائنة للولايات المتحدة ، بل الدائنة الوحيدة للولايات المتحدة ، فكسبت عطفها وجاءتها البضائع الأميريكية والمواد الغذائية الأميريكية تترى ، فانتعشت الحياة الاجتماعية فيها وأصبحت بروكسل تغص مطاعمها بالآكلين و « مبايرها » بالشاربين ، وأصبحت حوانيتها آهلة بأدوات الاستهلاك الضرورية والمترفة أيضاً .

على أن هذا الهناء المعنوى والرخاء الاقتصادى يشوبهما ارتباك سياسى له مضاعفة اجتماعية . ويرجع الارتباك السياسى الذى تجلى خلال الانتخابات العامة إلى موقف الأمة البلجيكية من الملك ، وقد اتضح أن « الفلمنك » يريدونه وأن « الفالون » لا يريدونه ، وأن الاشتراكيين والشيوعيين أنفسهم لا يعادون « الملكية » فى ذاتها بل يريدونها نظاماً لبلجيكا ، لكن شخص الملك هو الذى يعارضونه . وقد أدى هذا الارتباك إلى قيام أزمة تأليف الوزارة المنبعثة من الانتخابات الجديدة مدة طويلة . وأما المضاعفة الاجتماعية فمستندة إلى ما يبدو من منافسة قوية بين الاشتراكيين والشيوعيين . وهم مضطرون لأن يتعاونوا لمقاومة أحزاب اليمين وإن كانوا فى تعاونهم يتكارهون .

تلك هى الانطباعات العامة التى أعود بها من العواصم الثلاث عن حالات الدول الثلاث . أما هيئة الأمم المتحدة ، فقد كان انطباع الأسبوع الأول من أسابيع دورتها الأولى التى دامت من العاشر من شهر يناير إلى السابع عشر من شهر فبراير انطباع أمل وثقة . ذلك بأنه كان أسبوع الخطب التى انطوت على الترحيب بالمولود الجديد ، وتضمنت الوعود بالعمل لخير العالم الجديد . لكن ما كاد ذلك الأسبوع الأول ينقضى وما كادت المجالس واللجان تتناول أعمالها حتى لاح فى الأفق أن « الليلة شبيهة بالبارحة » وأن « الأمم المتحدة » لا يميزها عن « عصبة الأمم » إلا أن المناقشات تجرى فيها علنية . أما الرغبة فى سيطرة « العظميات » على الصغيرات فواحدة ، وأما الخلافات على هذه السيطرة وما يراد وراءها من نفوذ فواحدة ، وأما سياسة وخز الإبر فواحدة ، وكذلك التلويح بطريقة التفاهم على حساب الغير واحد .

لكن العلنية التى تمتاز بها « الأمم المتحدة » قد كان من شأنها أن جعلت مناقشاتها فى متناول المفكرين بمجرد حصولها ، فكنهم ذلك من التعليق عليها فى حينها . ويلوح لى أن سيكون لهذا الوضع أثره فى دفع « العقليين » فى مختلف البلاد إلى الإحساس بأن عليهم أن يرعوا فكرة التعاون العالمى وأن يحولوا دون تعكير صفوها من جانب الطامعين النهمين من رجال الحكم .

وسيكون هذا طريق السلامة .

محمود عزمى